

حافظ الشيرازي والتراث العربي أسرار الإبداع في شاعريته

د. عبد الكريم اليافي

شمس الدين محمد المعروف بخواجه حافظ الشيرازي والملقب بلسان الغيب وترجمان الأسرار من أعظم شعراء الغزل في الأدب الفارسي بل الأدب العالمي . تاريخ ولادته على أفضل تقدير عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م وتاريخ وفاته على أفضل تقدير أيضاً عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٨ أو ١٣٨٩ وعلى هذا يكون قد عاش نحواً من خمس وستين سنة . وتزيّن حياته زهاء ثلاثة أرباع القرن الثامن الهجري والقرن الرابع عشر الميلادي .

وإذا كانت المدن ترسخ وجودها على الأرض بالاتساع وال عمران واستمرار البقاء فان بعضها يؤكد خلوده في غمار الزمان بأبنائه العظام . ولا شك أن شيراز تدين بشهرتها الواسعة الأبدية لعلمائها الكبار وعارفيها الفضلاء ولكنها تدين بشهرتها خاصة لولديها العالميين العظميين سعدي في القرن السابع الهجري وحافظ في القرن الثامن .

ولد حافظ في هذه المدينة من أب كان يشتغل بالتجارة . وكان أصغر أولاده الثلاثة . وتوفي الوالد وتفرق الاخوة . وبقي الابن الصغير شمس الدين محمد مع والدته في شيراز . وتذكر الموسوعة الاسلامية نقلاً أنه كان له أخت أيضاً .

اشتغل حافظ فيما يروى حين كان صغيراً أجير خباز : فكان يفيق في غلس الليل ليقوم بعمله حتى الفجر . فاذا فرغ اشتغل بالعبادة . ثم انصرف الى حلقات

بعض العلماء الأعلام في مدينته يأخذ عنهم علوم عصره شأن الفتيان الذين تفتحت قلوبهم وبصائرهم على محبة العلم والتفقه فيه .

وأقبل خاصة على دراسة علوم الدين واللغة العربية والفارسية وبرع في ذلك كله ، وحفظ القرآن الكريم وهو فتى فوَّصف بالحافظ ، حتى غدا هذا الوصف لقباً له شهراً به وتمسك هو به حتى جعله اسماً له يزهى به . بل كان يعزو الفضل في لطف شعره وسحر بيانه الى ما يرمز اليه هذا اللقب .

وله بيت من الشعر الفارسي يفيد هذا المعنى :

ما رأيت اللطف من شعرك يا حافظ بالقرآن الذي يكتنه صدرك

وقد أجاد اللغة العربية اجادة تامة واطلع على التأليف العربية التي كانت متيسرة ورائجة في بلده شيراز .

درس «الكشاف عن حقائق التنزيل» لأبي القاسم جابر الله الزمخشري (متوفى ٥٣٨) و «المصباح» في النحول للامام ناصر بن عبد السيد المطرزي ، (متوفى ٦١٠) و «طوابع الأنوار من مطالع الأنظار» في الحكمة والتوحيد ، للقاضي البيضاوي (متوفى ٦٨٥) و «مفتاح العلوم» في البلاغة وفي بقية العلوم للعلامة سراج الدين يوسف أبي يعقوب السكاكي (متوفى عام ٦٢٦) .

ونلاحظ أن هؤلاء المؤلفين جميعهم من ايران وخوارزم . وأحدهم وهو البيضاوي أبو الخير ناصر الدين عبدالله بن عمر نسبته الى البيضاء وهي مدينة باقليم فارس قريبة من شيراز تدعى اليوم تل بيضا ، اسمها عربي مفرد في فارس ، دعاها بهذا الاسم الجنود العرب الذين عسكروا فيها بعد اذ حصنوها حين حاصروا اصطخر زمن الفتح الاسلامي . وكانت قلعتها تستبين من بعد ويرى بياضها وهي تقع في شرق الوادي الجميل شعب بوان .

وانما توافرت كتب أولئك المؤلفين بفضل انتشار الوراقة ولقرب العهد بها ولتدريسها جيلاً بعد جيل . هذا وتسلسل التعليم والرواية عن العلماء والاجازات التي تخرج الطلاب النبهاء متواصلة في تلك الحضارة الواسعة لشرف العلم والعلماء فيها .

وقد نشأ حافظ وشهر بعلمه واطلاعه على العلوم العربية والآداب العربية والفارسية وسمي معلماً في مدرسة شيراز . وهو قد أحب مدينته حب سلفه سعدي لها، ولكنه لم يقيم على خلاف سعدي بأسفار طويلة ما عدا سفرأ قصيراً الى بندر هرمز وسفرأ آخر الى مدينة يزد وزيارة لقبر علي الرضا في مشهد . وقضى سائر عمره في شيراز التي تَمَلَّى أرضها وسماءها وكان طوال حياته هزارها الذي تغذى جناها وسلسالها وغنى جمالها أجمل غناء . وقد دفن فيها وغدا ضريحه مزار الناس ومرتاد المعجبين بشعره وغزله .

شيراز مدينة بنيت أو جددت في أثناء خلافة عبد الملك بن مروان وأثناء حكم الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق . ويروى أن أول من بناها محمد بن يوسف أخو الحجاج ولأه أخوه على اقليم فارس فبنى هذه المدينة كما يروى أن محمد بن القاسم ابن أبي عقيل وهو ابن عم الحجاج وفاتح الهند هو الذي بناها .

كانت معسكراً للمسلمين لما حاصروا مدينة اصطخر ثم جدد حكامها عمارتها وغدت مدينة عربية اسلامية كالدارة في اقليم فارس وورثت مجد العاصمة القديمة اصطخر . وقد ازدهرت في القرن الرابع الهجري حين اتخذها البويهيون مستقراً لهم وقاعدة للحكم في فارس . وبلغت في زمن عضد الدولة فناخسرو ابن ركن الدولة شأواً عظيماً من العمران . وقد قصدها أبو الطيب المتنبي حين أرسل اليه بعد وفادته على ابن العميد عضد الدولة يستزيه فحظي عنده وفاز ببعض أمانيه ومدحه بمدائح خالدة منها قصيدته التي يصف بها شعب بوان وقد مر به في طريقه اليه .

ثم أهملت شيراز وفقدت مكانتها حين انتقلت السلطة السياسية الى البقاع الشمالية من ايران . ولكنها مع ذلك بقيت وما زالت حتى الآن كالحديقة الغناء الحافلة بالرياض والورود ولا سيما الورد الجوري الذي هو صنو الورد البلدي أي الورد الدمشقي الذي سارت شهرته في العالم أجمع . والنعت الجوري نسبة الى مدينة جور القريبة من شيراز وهي التي بدّل اسمها عضد الدولة فجعله فيروزاباذ وقد نسب الى شيراز جماعة كثيرة من العلماء في كل فن وكذلك جماعة من

الزهاد والصوفية أشهرهم أبو عبدالله محمد بن خفيف الشيرازي شيخ الصوفية
اذ ذاك . ولكثرة الصوفية والزهاد فيها دعيت « برج الأولياء » . كما أنه نبغ
فيها بعد حين من الزمان وفي بداية العهد الصفوي فلاسفة مشهورون من أبرزهم
صدر الدين الشيرازي الملقب «ملاً صدرا» الذي انتهى اليه العرفان .

تغنى بشيراز سعدي في القرن السابع الهجري ، ثم تغنى بها حافظ في القرن
الثامن الهجري . وقد بلغ تغنييه بها غاية الرقة والعذوبة وهي عنده في التشبيه
كالخال على خد الأقاليم السبعة .

وربما كان من الطريف ومن المفيد أن نستجلي بعض محاسن شيراز في زمن
حافظ نفسه . فلقد عاصره ابن بطوطة (١٣٠٤/٧٠٣ - ١٣٧٧/٧٧٩) وزار في
ثنايا رحلته الواسعة الطويلة شيراز . وقد دخلها في سنة ٧٢٧ (كان حافظ
يحبو أو طفق يمشي في العام الأول من عمره) ويقول فيها : « وهي مدينة أصيلة
البناء ، فسيحة الأرجاء ، شهيرة الذكر ، منيفة القدر ، لها البساتين المونقة
والأنهار المتدفقة والأسواق البديعة والشوارع الرفيعة . وهي كثيرة العمارة
متقنة المباني عجيبة الترتيب . وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم .
وأهلها حسان الصور ، نظاف الملابس ، وليس في الشرق بلدة تداني مدينة دمشق
في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز . وهي في
بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشققها خمسة أنهار أحدها
المعروف بركن آباد (تغنى به حافظ) وهو عذب الماء ، شديد البرودة في الصيف
سخن في الشتاء ، فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة . ومسجدها
الأعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء .
وصحنه متسع مفروش بالمرمر . ويغسل في أوان الحر كل ليلة . ويجتمع فيه كبار
أهل المدينة كل عشية ، ويصلون به المغرب والعشاء . وبشماله باب يعرف بباب
حسن يفضي الى سوق الفاكهة . وهي من أبدع الأسواق . وأنا أقول بتفضيلها
على سوق باب البريد من دمشق .

وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصاً نساءها . وهن يلبسن الخفاف
ويخرجن ملتحفات متبرقات فلا يظهر منهن شيء . ولهن الصدقات والايتار .

ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم . فربما اجتمع منهن الألف والألفان بأيديهن المراوح يروحن بها عن أنفسهن من شدة الحر . ولم أر النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد . »

ويشيد الرحالة ببعض المشاهد التي رآها في شيراز كمشهد أحمد بن موسى أخي علي الرضا بن موسى بن جعفر الصادق ومشهد الامام الولي أبي عبد الله بن خفيف كما يشير الى ضريح الشاعر الكبير سعدي فيها . لقد قابل ابن بطوطة بين شيراز عاصمة ولاية فارس اذ ذاك ودمشق عاصمة بلاد الشام في حسن الأسواق والبساتين والأنهار ، ولا سيما بين سوق الفاكهة في الأولى وسوق باب البريد في الثانية . وتلك مظاهر تتبدل مع الزمان في التنظيم وشكل العمران . ولكنه أغفل منظرًا طبيعيًا مشتركاً يضم الاثنتين وهودائم وسافر للعيان وهو أن كلتيهما مستلقية على سفح جبل . أما شيراز فعلى سفح جبل « الله أكبر » وأما دمشق فعلى سفح جبل قاسيون . ويروى أن تسمية جبل شيراز كذلك أن طائفة من الأولياء والصوفية لما قدموا اليها وأطلوا من أحد شعاب الجبل راعهم المنظر فهتفوا جميعاً : الله أكبر .

على أن محاسن شيراز تعرضت في القرن الثامن الهجري لعواصف سياسية وحروب داخلية دامية .

ذلك أنه لما انقرض مغول ايران أو الايلخانيون عمد بعض القادة والولاة الى اعلان استقلالهم في ولايات ايران . فنشأت فيها دويلات محلية مستبدة تقيم حكمها على أساس روابط الأسرة فكانت تتنافس وتتطاحن وبقيت كذلك حتى فاجأها تيمورلنك في نهاية القرن الثامن بغزواته وفتوحاته المدمرة .

حوصرت هذه المدينة في زمن حافظ نحو خمس مرات وتداول حكمها الأمراء والملوك من تلك الأسر فكانت الحياة الاجتماعية فيها بين مدّ وجزر وشدة ويسر تتعرض حيناً لوابل من الدماء وتزخر تارة بالمحافل والأعياد ، تتراخى العادات والأعراف فيها طوراً ، ويسودها التقشف والزهادة طوراً آخر ، وتتلاطم فيها السلطات تلاطم الأمواج في البحر المزبد ولم يكن هذا البحر سوى صحراء ايران وهضابها وسهولها وواحاتها .

أما حافظ فشق طريقه في قرض الشعر ولمع فيه علكاً مجلياً، وكان يراقب صروف الحياة دون أن يتورط في تياراتها ولا في صروفها المفاجئة . فلا نجد في شعره الا اشارات خاطفة تزيد في بيان براعته وجمال قريضه . ويجهد شراح ديوانه في تعيين من تشير اليه من ملوك وما تلمح به من حوادث أو وقائع .

وقد شهد وهو في ريعان شبابه كيف استولى أبو اسحاق اينجو^(١) على شيراز مرة ثانية سنة ٧٤٣ ولبت حاكماً لها عشر سنوات حتى سنة ٧٥٤ ويروى أن هذا السلطان كان شاعراً وكان محباً للعلم ، وكان كريماً فتح أبوابه للناس جميعاً من شريف ووضيع وفقير ورفيع ، وكان يميل الى اللهو والسلم والحياة الرخية .

وقد تمكن مبارز الدين محمد مؤسس دولة المظفرين أن يهزم أبا اسحاق حين داهمه على أبواب شيراز ففر الى اصفهان واحتفى بها حتى سنة ٧٥٨ حين وقع أسيراً في أيدي آل المظفر فسيق الى شيراز التي حكمها من قبل فأعدم في ميدانها وأدرج مبارز الدين شيراز واصفهان في عداد مملكته .

واتسم حكم مبارز الدين في شيراز بالقسوة وشدة التمسك بالدين والزهد والورع وقد ائتمر عليه أبناءه فقبضوا عليه سنة ٧٥٩ وسلموا عينيه وتوزعوا مملكته بينهم فكان أقليم فارس الذي عاصمته شيراز من نصيب ابنه الشاه شجاع وقد أشار حافظ في مقطوعة له الى هذه الحادثة . فهو يحذر المرء من الركون الى الدنيا وصروفها وينوه بالملك الغازي القوي مبارز الدين ثم يقول ما معناه : سمل عينيه من كان ينير له الدنيا اذا وقعت عيناه عليه .

والمشهور أن الشاه شجاعاً على خلاف أبيه رفع الحظر على الحانات وأباح للناس سبل اللهو . وقد خلفه على شيراز ابنه زين العابدين . لكن أبناء الشاه شجاع تطاحنوا وما زالوا يتطاحنون حتى غشيههم صليل السيوف في جيش تيمور فأبادهم جميعاً .

شهر حافظ بديوانه الذي ترجم الى سبع وعشرين لغة . فيه نحو سبعمائة

١ - اينجو في لسان المغول تعني الاملاك الخاصة للايلغانين المغول وكانت تلك الاسرة تقوم على تحصيل ريعها .
وابو اسحاق هذا هو الذي ذكره ووصفه ابن بطوطة حين قدومه الى شيراز .

قطعة من الشعر منها ما يقرب من خمسمائة مصوغة في هذا الضرب من الشعر الفارسي الذي يدعى بالـغزل . وقد طارت شهرة غزله في الآفاق داخل إيران وخارجها حتى ان الشاعر الألماني الشهير غوتي قد عدّه أحد الأعمدة التي قام عليها صرح الآداب العالمية . هذا وقسم من أشعاره ملمّع أي ورد بعض أبياته بالعربية . وقد نسب اليه شعر بالعربية ولكنه لا يرتفع الى مستوى شعره بالفارسية . والذي نظنه أن الشعر الذي نظمه بالعربية ينبغي أن يكون أكثر من الذي وصل إلينا نظراً لتضلع حافظ من هذه اللغة ومعرفة آدابها معرفة عميقة . وربما ضاع في المحن وفي غبار الزمن . وقد أطلق الشاعر عبد الرحمن جامي (١٤١٤/٨١٧ - ١٤٩٢/٨٩٨) في كتابه « نفحات الأنس » على حافظ لقب لسان الغيب وترجمان الأسرار وفسره بأن صاحب هذا اللقب كشف عن كثير من الأسرار الغيبية والمعاني الحقيقية التي التفتت بألبسة المجاز . وهي مع ذلك خالية من التكلف والاضطراب . وهذا كله يدل على أن أشعار حافظ كانت تهز الناس وتطربهم أيما طرب وتبعث في نفوسهم نشوة عميقة .

ان التمكن من الثقافين العربية والفارسية أفاد حافظاً في قريضه وبلاغته . وقد أشار في غزليته رقم ٢٨ الى استفادته من البلاغة العربية . فهو يقول ما معناه : « ليس من الأدب التمدح و اظهار الفضل أمام الحبيب . ولهذا فلساني صامت ولكن فمي حافل ببلاغة العرب . »

هذا وربما كان القارئ يود أن يطالع على بعض ما وصل إلينا من شعره العربي . فنحن نثبت له هذه القطعة :

الم يأتهم أنباء من بات بعدهم	وللناقضين العهد أن يتندموا
فيا ليت قومي يعلمون بما جرى	وفي قلبه نار الأسى تتضرم
حكى اللمع عني والجوانح أضمرت	على مرتج منهم فيعفوا ويرحموا
أتى موسم النيروز واخضرت الربا	فيا عجباً من صامت يتكلم
بني عمنا جودوا علينا بجرعة	ورقق خمر والندامى ترنموا
شهور بها الأوطار تقضى من الصبا	وللفضل أسباب بها يتوسم
أيا من علا كل السلاطين سطوة	وفي شأننا عيش الربيع محرم
لكل من الغلان ذخر ونعمة	ترحم جزاك الله فالخير مغرم
	وللحافظ المسكين فقر ومغرم

وها أنذا أختار بعض الأبيات العربية التي وردت في قصيدة له ملمعة :

سليمى منذ حلت بالعراق	ألاقي من نواها ما ألاقي
ربيع العمر في مرعى حماكم	حماك الله يا عهد التلاقي
مضت فرص الوصال وما شعرنا	وانسى الآن في عين الفراق
نهاني الشيب عن وصل العذارى	سوى تقييل وجه واعتناق
دموعي بعدكم لا تحقروها	فكم بحر تجمّع من سواقي

على أن العصر الثامن الهجري مع ما خامره من فتن واضطراب في مختلف أرجاء العالم الاسلامي الواسع لم ينفك عن متابعة الازدهار اللغوي والأدبي والعلمي وعن التقدم في أكثر مظاهر المدنية . ذلكم أن عناصر المدنية من سياسة وإدارة واقتصاد وعلوم وفنون لا تجري في تطورها على نسق واحد . وإذا شئنا أن نستعمل تعبيراً اجتماعياً حديثاً قلنا ان المتغيرات الحضارية والاجتماعية لا تتبع في تغيرها المستمر خطأ بيانياً واحداً . بل لكل منها خط بياني في تطوره وان كانت جميعاً تلفها حضارة واحدة . وهكذا نجد في هذا العصر مع اضطرابه وفتنه وقلقله من قل أشباههم ونذر أمثالهم . وحسبنا هنا أن نشير الى ثلاثة من معاصري حافظ ومواطنيه ممن بلغوا القمة في علومهم .

ولد عبد الرحمن عضد الدين الايجي (٦٨٠ / ٩١٢٨١ - ٧٥٦ / ١٣٥٥)
بايج من نواحي شيراز . ولي القضاء وغدا اماماً في المعقولات وفي أصول الفقه وفي المعاني والبيان والنحو وأنجب تلاميذ عظاماً . من كتبه المشهورة « المواقف في علم الكلام » .

وولد مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزابادي (٧٢٩ / ١٣٢٩ - ٨١٦ / ١٤١٣) في بلدة كارزين القريبة من فيروزاباد التي أشرنا اليها آنفاً . وقد درس في شيراز ، ثم بغداد ، ورحل الى دمشق وبيت المقدس ثم زار القاهرة ومكة والهند ثم رجع الى مكة وبقي فيها مدة ثم زار تيمور في شيراز حين دخلها فاتحاً . وقد عرف تيمور مكانته فأكرمه غاية الاكرام ، ثم خرج الى اليمن . ولما دخل زبيد سنة ٧٩٦ تلقاه الملك الأشرف اسماعيل من

الدولة الرسولية وبالح في اكرامه وبقي فيها حتى وفاته نحو عشرين سنة وتولى قضاء اليمن كله . وقد تزوج الملك الأشرف ابنته وكانت رائعة في الجمال فقال بذلك منه زيادة البر والرفعة وألف في زبيد قاموسه المحيط المشهور الذي هو ركن من أركان اللغة العربية . ومن المعلوم أن الشعوب الاسلامية كان يتزوج بعضها من بعض . وأعلى الكفاءات في الزواج هي العلم . ومجد الدين قد ولد في فارس ولكنه كان ينتسب الى أبي بكر الصديق ويصف نفسه بالصادقي .

وولد السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (٧٤٠/١٣٤٠-٨١٣/١٤١٣) في بليدة من نواحي جرجان في شمالي ايران . ولكنه التحق في سنة ٧٧٩ بخدمة الشاه شجاع الذي جعله أستاذاً في مدرسة «دار الشفاء» في شيراز . وربما كان زميلاً لحافظ لبعض الوقت . أخذه تيمور في سنة ٧٨٩ حين دخل شيراز للمرة الأولى الى سمرقند . ولكنه استطاع الرجوع الى شيراز بعد وفاة تيمور عام ٨٠٧ وتوفي السيد الشريف في السنة التي توفي فيها الفيروز آبادي . من أشهر كتبه «التعريفات» وله أيضاً كتاب «شرح المواقف» أي مواقف الايجي .

على أن بلاد العرب وبلاد الاسلام كلها كانت تتألق بالعلماء والشعراء والمؤلفين في هذا العصر كما في العصور الأخرى . ونحن نرغب في ايراد أسماء بعض الأعلام اشارة الى هذه الكثرة الزاخرة اذ ذاك نذكرهم حسب تواريخ وفياتهم الهجرية . وكأننا نتغنى بهم :

الامام ابن تيمية (٧٢٨) والسلطان المؤرخ أبو الفداء (٧٣٢) ، وشهاب الدين النويري صاحب «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٧٣٣) وابن فضل الله العمري صاحب كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (٧٤٨) وشمس الدين الذهبي الحافظ المؤرخ (٧٤٨) والشاعر عمر بن الورد (٧٤٩) والشاعر الكبير صفي الدين الحلي (٧٥٠) وابن قيم الجوزية (٧٥١) وابن هشام النحوي (٧٦١) وصلاح الدين الصفدي (٧٦٤) وابن شاكر الکتبي (٧٦٤) وابن كثير المحدث والمؤرخ صاحب كتاب «البداية والنهاية» (٧٧٤) ولسان

الدين الخطيب الغرناطي الأندلسي (٧٧٦) ومسعود بن عمر التفتازاني (٧٩٣) أبعد تيمورلنك الى سمرقند كما أبعد الشريف الجرجاني اليها ، وعبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة والتاريخ المشهورين الذي رحل الى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق ثم قدم دمشق عند محاصرة تيمورلنك لها وقابل الطاغية على أبوابها (٨٠٨) .

وقد قدمنا هذا العرض لبيان اشتباك الصروف السياسية والحربية وتقديم العلوم والآداب الدائب في ظلال تلك الصروف وفي دياجيتها . ويصعب على الباحث حين يتناول علماً من الأعلام ولا سيما مثل حافظ ألاّ ينوّه بذلك التقدم الدائب وذلك الاشتباك المؤسف .

لقد مضى على وفاة حافظ ستمائة عام . وتخليداً لذكراه أقيم مهرجان تكريم له في دمشق لالقاء أضواء جديدة على أدبه وثقافته وشعره ألقى كاتب هذه السطور فيه بحثاً حول أسرار الابداع في شاعرية حافظ وهو البحث الآتي .



من الصعب على الباحث أن يُمسِك بأسرار كشفٍ علمي يدرسه أو إلهام شعري يتأمله . ولكنه يستطيع أن يوضح تلك الأسرار ما تسنّى له الايضاح . ومن الصعب أيضاً أن يتلمس الباحث عبقرية الشاعر اذا كان غير مختص بلغة الشاعر وآداب قومه ، ولكن هاتين الصعوبتين قد يجدهما الداني القريب كما يجدهما القاصي البعيد . وقديماً قيل : « شدة القرب حجاب » ، وقد يرى البعيد ما لا يراه القريب . ولكننا نقول أيضاً : « شدة البعد غياب » ، وقد يرى القريب ما لا يراه البعيد . وفرق كبير بين أن تسمع خفقات قلب الحبيب وهو في يديك وعلى وسادتك وأن تتصور تلك الخفقات مجرد تصور ، وكذلك فرق كبير بين أن تقرأ الشاعر في لغته فتسمع هجسات نفسه وأن تقرأه في ترجماته فتغيب عنك تلك الهجسات الخفية . ومع ذلك فربما يتاح لنا مع قربنا من حافظ في ترجماته وبعدنا عنه في لغته الأصلية أن نحكيه لماً وليس دائماً ولو في شأن من الشؤون . أوليس هو الملقب بلسان الغيب وترجمان الأسرار ؟! فلا يعوزنا بحافز حبّه

وعاصف الاعجاب بعبقريته أن نتكلم على ابداعه وأن نترجم أسرار هذا الابداع الى العربية ، حتى للمختصين بدراسة هذا الشاعر العظيم . . .

ان الشعر كبقية الفنون يتألف من عناصر عدة متباينة وعناصره هي الألفاظ والايقاع والوزن والقافية والنغم الذي ينساب بين ذلك كله والمعاني المختلفة حقيقية ومجازية ورمزية والايحاءات التي تواكب المعاني وتحفّ بها والتي تطلق الفكر في آفاق شتى ثم يأتي فوق ذلك كله ائتلاف تلك العناصر المتعددة والتحامها في صيغة مثلى عليا متقنة الأداء رائعة التأثير لا يمكن تصور صيغة أعلى منها في موضوعها المفرد الذي يضم تلك العناصر ضمّ الأم لولدها الوحيد . .

والباحثون في شعر حافظ متفقون جميعاً على عدوبة ألفاظه وبعده عن الكلمات النابية والعبارات الواهية ومجمعون على ما في هذا الشعر من ايقاع مؤثر يجذب اليه القلب ويطرب له السمع وتهش له النفس ، اذ يصور نزاعاتها الحسية والعلوية معاً ، وتبتهج به الروح اذ يحلق بها في جو من الأحلام والآمال والحرية والصفاء والابداع ، هذا كله ينوّه به علماء اللغة الفارسية وزعماء الأدب الفارسي . . .

أما نحن فنريد أن نعالج بعضاً من معانيه التي نزع من التفنن في سبكها وفي تلوينها من أسرار ابداعه . هذه الأسرار قد لا يدركها الحساد الشائتون فيلخصونها في جملة من الأغراض المتكررة المتباينة ، وذلك على مثال ما يروى من أن سلطان شيراز الشاه شجاعاً كان ينظم الشعر ويريد أن تبلغ أشعاره ما بلغت أشعار حافظ من الشهرة وبعد الصيت وكمال الصنعة واحسان الأداء ، فاستدعاه يوماً وانتقد غزلياته قائلاً : « ان واحدة من غزلياتك لا تجري على نهج واحد من أولها الى آخرها بل اننا نجد في الغزل الواحد بعض الأبيات في وصف الخمرة وبعضها في التصوف والباقي في التغزل بالحبيب ، وهذا التلون والتنوع في أغراض الغزل لا يجيزهما البلغاء والفصحاء » . وقد صعب على حافظ أن يشرح له أسرار صناعته ، ومن المعلوم أن الشعراء يقولون أشياء جميلة دون أن يدركوا كيف يقولونها كما قرر قديماً سقراط زعيم فلاسفة اليونان ، فلم يجد حافظ ما يرد به على الشاه شجاع خيراً من أن يوافقه على ما ذهب اليه وأن يختم

عبارته بلون من الثقة بالنفس والسخرية اللاذعة فقال : « ان ما قاله مولاي هو عين الصدق ومحض الصواب ، ومع ذلك فان أشعار حافظ يتردد انشادها في الآفاق على حين لا تتجاوز أقوال غيره من الشعراء أبواب شيراز » . . .

وعندنا أن هذا التفنن في مختلف الأغراض في غزلية واحدة يحكي صياغة جوهرة من الماس فريدة ، فهو يعرض ألواناً من العواطف الجميلة كما يعرض الموشور البلوري ألوان الطيف السبعة حين يجتازه النور الأبيض ، ألوان الطيف هذه تبهج البصر كما تبهج تلك الأغراض الفنية المصوغة صوغاً متقناً وملهماً حاسة السمع العقلية الفنية ، فتطرب الفكر باحكامها واتقانها على مثال الموسيقى البوليفونية الجميلة الممتعة .

ثم ان هناك أموراً أخرى لا بد من جلائها لبيان ذلك الابداع .

ذلك أن شعر حافظ يختلف دارسوه وشراحه في حقيقة مقاصده أكان يريد بالخمرة بنت الكرم وبالأحباء بنات شيراز الشهيرات بالجمال والاغراء ذوات العيون السود السابية والثغور النقية والقُدود المائسة وضمائر الشعر المسبلة على الكتفين والحديث الناعم والشذا الفاغم أم يريد معاني روحانية ومجالي ربانية يحار في تأملها الدرويش الصوفي ويفرق في لآلئها فكر الشاعر الحكيم . أو كان حافظ يلزم حقاً خمارات المجوس وأديرتهم أم كان يرمز بها الى الظواهر المادية التي كان يتجاوز أشكالها وسقاتها وراحها الى ما وراء ذلك من لبانات مثالية عالية ؟ . . . ان ذلك الابهام يسبغ على أشعار حافظ صفة الرمز . وللرمز الشاعر الملائم للطبع مزايا كثيرة . . . منها أن الرموز متصلة بالحالات النفسية التي يريد الشاعر أن يصورها أو يوحي بها ويشير اليها . ذلك أن معاني الألفاظ الحقيقية تحيط بالفكرة وتحصرها وتحددها ، ولكن المعاني الرمزية تطلق الفكر في جو من التأمل وتحمله على بُراقها في رحلات بعيدة ، وتتيح له أن يكشف عن رؤى بديعة تتنوع حسب الطبع والميول والثقافة والسريرة . . . وهذا يجعل السامع أو القارئ يشعر بجذال لذيق خفي حين يتوهم أنه يشارك الشاعر في تحري تلك الرؤى الطريفة وفي تبصرها . ان الوضوح التام يحرم الفكر من غبطة الحزر التدريجي . أما الايحاء والغموض فهما الغاية المنشودة وهما السر المخامر للرمز . الوضوح التام يجعل الفكر يقف عند رؤية المرء سطح البحر ولكن الرمز

يحفضه على الفوص في أعماق اللجج لالتقاط اللآلىء. الوضوح التام ينظر أيضاً الى صفحة القبة الزرقاء في النهار فيراها جميلة حقاً بلونها السماوي اللازوردي ، ولكن الرمز ينظر اليها في ليلة صافية فيجعل الفكر يُشَدُّه بتأمل نجومها وكواكبها وبروجها ويحاول السفر بعيداً في أجوائها الساحرة الشاسعة . .

ان هذا الذي قدمناه لا يكفي . بل نزيد أن الحب والوجد والكأس والشراب والحبيب والربيع والخضرة والرياحين كلها أمور يميل اليها الطبع ويأنس بها القلب وتستلذها الفطرة الانسانية ، ولهذا قرننها الشعراء منذ القديم بأشياء مستحبة وملذوذة أو شبهوها بها ، فالوجد يشبه النشوة والحب يشبه السكر والشراب بحسب ألوانه يذكر بالورد أو الياقوت ورائحة التفاح أحياناً وغيرها . . . كما أنهم شبهوا وجه الحبيب بالقمر أو الشمس وثغره بالدر وقوامه بالغصن وشذاه بالعير ، وما الى ذلك من صور شعرية فاتنة ، ثم ان الربيع يحكي شباب العمر ، وتكاد الخضرة والبساتين والرياحين تمثل الجنان . وقد نستعمل في علم البيان المشبه به مكان المشبه فتلك هي الاستعارة والمجاز ويضاف الى ذلك الكناية والتلميح وما الى ذلك من وسائل التعبير التي تضيف ستاراً على المقصود الحقيقي ولكنها تلمح به أو تشف عنه ، وذلك هو جوهر الرمز الشعري . ولكن هذا رمز ندعوه من الدرجة الأولى . فاذا صعدنا درجة أعلى واعتمدنا تلك الاستعارات لا لأجل ما تدل عليه في عالم الواقع من حبيب انساني وخمر مادية وكأس بلورية ولا ما تحاكيه في عالم الشعر من شمس أو قمر أو ورود أو عقيق أو لازورد بل لتشير الى معالم علوية كالحب الالهي والنشوة بهذا الحب ، وكحنين النفس الى القيم العليا مشابهاً لعشق الفراشة للنور ثم التغني بالضياع وخلع العذار في هذا العشق السامي ، فان ذلك رمز ندعوه من الدرجة الثانية وهو أكثر عمقاً وأشد شفوقاً عن أبعاد متعددة وعن عوالم متفاوتة الصور كالعالم المادي والعالم الشاعري والعالم الروحاني منظمة ومرتبعة على مستويات ثلاثة وما الى ذلك من آفاق واسعة حرة مستجيبة للتأويل وغنية بالصور والأحلام . . .

ربما يعمد الشاعر الى مثل هذا الرمز المتعدد الدرجات ولكنه لا يأتي بالشعر العجائب . ذلك أن المهم لا حشد المعاني ولالطافة الألفاظ ولا حساب الوزن والايقاع ، ولا غيرها من العناصر .

وانما المهم تأليف ذلك كله تأليفاً معجزاً مبتكراً بديعاً لا يعلو عليه تأليف في موضوعه ولا تستطيع أن تناله يد بالتغيير والتبديل وهذا هو سر الالهام وحقيقة الابداع ، وهذا ما نظن أن حافظاً قد بلغ الأوج فيه والاحتفاظ به . لم يكن أحد يدرك اذ ذاك أن ذلك الصبيّ الخباز سوف يصنع بشعره أطيب أصناف الحلوى الحسية والروحية ليقدمها الى العالم أجمع. يضاف الى ذلك أن لسان الغيب كما أصبح يدعى لم يقبّع في برج عاجي ولا كان بعيداً عما يجري في مجتمعه ويقع بمدى يمتد من ضغوط اجتماعية ومن عنف ومحن وطوارئ محزنة ، فكان في شعره يعمد الى التلميح في الحين بعد الحين ويشير ولو من بعيد الى تلك الظروف الاجتماعية ، حتى ان شراحه يجهدون في ارجاع كل تلميح الى حادث مسمى . ولا غرو في ذلك فقد كان ذا قلب انساني بكل ما في لفظ الانساني من معنى شريف وخلق سام ، فهو يكره التزلف ويبغض النفاق والرياء ويندد بالاستبداد وينوه بالحرية والنقاء. قلبه عامر بحب بلده شيراز برج الأولياء وبحب غيدها ، طافح بحب أمته ، بل بحب الانسانية كلها . وهو اذا ظهر في شعره بمظهر الماजन المستخف بالعرف فلكي ينكر التعصب وينادي بالحرية الفكرية والمعاشية ، ويجذب الأنظار نحو الفقراء والدراویش، ويتمشى مع عواطفهم . أوليس ينكر على الشعراء انسياقهم في مظاهر الترف بلا طائل ولا فائدة حين لا يبالون فقر الفقراء ولا حاجة المحتاجين ؟! من المعلوم أنه كان متمكناً من العلوم العربية ومن العلوم الدينية كما سلف حتى إنه كان يدرّس تفسير الكشاف في مدرسة شيراز ويُحشّي عليه الى جانب حفظه القرآن . وهو يدرك تماماً جمال بيتي أبي نواس في قطعته الفنية الجميلة المشهورة :

تدار علينا الراح في عسجدية جبتها بانواع التصاوير فارس
قراراتها كسرى وفي جنباتها مها تلزيها بالقسي الفوارس

فهو لا يمر بهما دون تعليق ، لا نجده ينكر على الماजन شرابه ولكنه يندد بهذه الكأس العسجدية التي لا لزوم لها في السكر اذ يستطيع الماजन أن يحتسي الراح في كوب بسيط وأن يوزع الذهب في تلك الكأس العسجدية على الفقراء :

ايها المحتسي بكاس ابن هاني بنت كرم كمثل لعل مذاب
أفلا جلت بالنضار على من ألصق الدهر أنفه بالتراب

على حد ترجمة الشاعر السوري محمد الفراتي لهذين البيتين .

وهو أيضاً يندد بأصحاب القصور الذين أعماهم الغنى المادي عن الغنى
الروحي . فإذا هم عاشوا في قصور مشيدة فالدراويش أغنى منهم روحياً إذ يبيتون
في قصر الكون يملكون ما فيه تملكاً روحياً حين يعون ما فيه من جمال ومحاسن
ومجالي لا تنفذ ، ذلك ان التملك المادي وَهْمٌ اذ لا نملك على وجه البسيطة
شيئاً عند التحقيق ، وهكذا حين تغنى الشعراء الدراويش أمثال حافظ بجمال
الحبيب وسحره يشعرون بغناهم الروحي اذ يملكون الأشياء تملكاً ممتعاً آخر غير
التملك المادي ، فهو اذ يتغنون بجمال الحبيب يستطيعون أن يقدموا له هدايا
سنية مما يملكونه من الكون فيهبون له أشهر البلاد وأوسعها مثل سمرقند
وبخارى بل يستطيعون أن يهبوا له أكثر من ذلك ، وهنا لا بد من الوقوف عند
هذه النادرة :

عاش حافظ الشيرازي ليرى تيمورلنك يدخل مدينة شيراز سنة تسع وثمانين
وسبعمائة ويروى أن تيمورلنك لما دخل المدينة وكان قد قرأ شعر حافظ وأعجب
به استدعاه اليه ولامه على بيت في غزليته ذات الرقم (٣) وكانوا يتغزلون بالجمال
الهجين التركي الشيرازي ومعنى البيت «لو أن ذلك التركي الشيرازي يأخذ
قلوبنا بأشارة من يده لو هبت له كُرْمِي خاله الأسود سمرقند وبخارى» .

قال له تيمور : « اني سخَّرت أكثر الربع المسكون بحد السيف وأنت اليوم
تهب سمرقند وبخارى وهما موطناي الأليفين لخال أسود على وجنة تركي
شيرازي » .

ولكن الشاعر أراد أن يحوّل نظر الفاتح الشكس عن غناه الروحي الذي
يعتدّ به الى حالته المادية المزرية في الفقر والدروشة فأجابه : « بسبب هباتي الخاطئة
هذه تجدني يا مولاي أقضي حياتي فيما أنا فيه من عدم ومسكنة » . . .

هذا وقد قالت العرب قديماً : « من ألف فقد استهدَف » أي من ألف كتاباً
أو شعراً أو غيرهما فقد عرض تأليفه للنقد .

وقد انتقد حافظ حين بدأ غزلية له مُلَمَّعة هي الأولى في ديوانه بأحد بيتي شعر متوارين في سواد الكتب العربية ولا يكاد يعرفهما الا المختصون بالأدب العربي منسويين الى يزيد بن معاوية وهذان البيتان هما :

أنا المسموم ما عندي ترياق ولا راقبي
أدر كاساً وناولها ألا يا أيها الساقبي

ويدافع الشاعر الفارسي أهلي شيراز عن حافظ في هذا الاستهلال فيقول ما معناه : « رأيت حافظاً في المنام ذات ليلة فقلت له : يا فريداً في فضلك وعلمك كيف استحللت شعر يزيد بن معاوية وأبحت لنفسك استخدامه مع ما لك من فضل وكمال ، لا حد لهما . قال حافظ : ألم تعرف السر بعد ؟ أليس مال الكافر حلالاً للمسلم . »

ومع ذلك فان أديباً وشاعراً آخر هو الكاتب النيشابوري لم يقبل هذا العذر وراه واهياً فكتب ما معناه : « اني لأعجب كثيراً من تصرف خواجه حافظ ويعجز عقلي عن فهمه اذ ما هي الحكمة التي رآها في شعر يزيد فأوردها في ديوانه الأول ؟ حتى لو فرضنا أن مال الكافر حلال للمسلم ولم نعارض في هذا الشأن لعددنا عيباً كبيراً في الليث أن يخطف اللقمة من فم الكلب » .

ان هذه اللقمة من فم الكلب تحولت بكيمياء الفن الى حلية ذهبية ساحرة حين تناولها ترجمان الأسرار واستهل بها غزليته الفاخرة الملمعة . وهذا شأن الصوفية يأخذون كل ما يجدونه في عالم الواقع ويقلبون معدنه الخسيس الى معدن شريف ؟ أولسنا نذكر كيف كان ينادي يقال : يا سعتبري فقلبه الصوفي الى اسع تر برّي . وشاعت تلك الغزلية بذلك الاستهلال العربي البسيط القوي الايقاع عند جميع من شدا شيئاً من اللغة الفارسية والتركية والعربية والأوردية وغيرها . أذكر مصادفتي لكاتب تركي حديث في استانبول منذ ثلاث سنين لا يعرف العربية ، فما ان رأته حتى ابتدرني بهذا الاستهلال وهو يعرف أنني عربي . وكذلك شاعت هذه الغزلية في طاجكستان وأفغانستان وغيرهما من البلدان . ولقد هزني ايقاع هذا البيت لما سمعته في أرض غير عربية وبقي يعتمل في نفسي حتى هذه المناسبة في احياء ذكرى حافظ . فدفعني هذا الايقاع اليوم الى

أن أجاري مؤلف الغزلية الرائعة بروحه وأفكاره لعلني أجلو صوراً من براعته
وأغراضه لا تبدو على حقيقتها في الترجمات العربية . وقد خرجت عن
شروط الغزل الفارسي فتجاوزت عدداً لأبيات التي ينبغي أن تراوح عادة بين
الثمانية والخمسة والعشرين . ولعل روح حافظ الفنية التي ترفرف بيننا الآن
ترضى عن هذه الصناعة :

« ألا يا أيها الساقى أدر كأساً وناولها »

وأغرق مشكلات العيش في الصهبا وأبطلها

إذا ضاقت بك الدنيا بورد الكأس جمّلها

ودعني أنا والحسنا مع الصهبا أغازلها

وان ناءت بك الأوزا ر للرحمن أوكّلها

فؤادك بالهوى مضنى وروحك بالطلا ولهى

ويا ربي على الفقرا ء سحب العفو أسبلها

ملأت قلوبهم عشقاً حيارى في الهوى بّلّها

دجا الدهر وما زلنا * * * على فلّك الهوى نسري

ونحمل راية العشا ق من عصر الى عصر

ومن قطب الى قطب ومن قطر الى قطر

دعاة الحب في الدنيا وفي الأخرى وفي الحشر

سكارى منذ أن كنا بلا كأس ولا خمر

أتننا نشوة الصهبا ء قبل القطف والعصر

سرى تأثيرها في الرو ح مثل النور في الفجر

فجدّد نشوة سلفت ونفسك لا تحملها

★ ★ ★

ألا أيها الدرويش حسبك كوبك الملاقن
وزهدك في حطام العيش والرحمة والرضوان
فلا تحفل بما قالوا وما يجري ولا ما كان
فكم حلّ على شيرا ز من بغي ومن طغيان
وزال البغي والباغي وغاب الملك والسلطان
ولكن بقي النسريد من والنجس والريحان
أليست هذه دار ك برج العلم والعرفان
صلاتك حينها ليلى تجيء اليك أجلها

★ ★ ★

تؤاخذني على عاري ومجدي هو في عاري
وما عاري سوى جبي وصهبائي وقيشاري
وتهيامي بذات الشفة الحمراء كالنار
وما دارى زوايا النسك بل حانة خمار
أنا السكران لكنني أرجي رحمة الباري
يدارون الملوك وأنت ربّات البها دارى
لباسهم الرياء وأنت من ثوب الرياء عاري
ذنوبك أيها العاصي بماء التوبة اغسلها

★ ★ ★

عجيب أمر هذا الشعـر طفل " عمره " ليلة
يطوف العالم المعمور يقطع وعمره سهله
ويمضي خالداً في كل قلب ملهبا شعله

وكم من علة يأسو وكم ينقع من غلته
 كأن الله قد ألقى على تكوينه ظله
 فيا وجدني الى ثغر الـ جيب كأنه فـلـه
 ويا ظمئي الى الصهبا ء تمسح لاعجي كتـه
 فهيا يا شقيق الرو ح نحو الحان ندخلها

* * *

خلاف الأهل أضناني وابليس هو الجاني
 وما شان بهاء العيد ش الا الحاسد الشاني
 وما أحلى تلاقى الأهـ ل في حب واحسان
 فيا للشمل ضمّوه لندفع كل عدوان
 أليس المسجد الأقصى أسير قطيع ذؤبان
 ألا ان سلام الأر ض نيروزي وبستاني
 فيا رحمن كن معنا وبارك صلح اخواني
 ويا رباه رحماك عقود الصلح أكملها

* * *

أدر كأساً وناولها الا يا أيها الساقـي
 حميّا الكأس والمحبو ب زادا نار أشواقـي
 رعاك الله يا شيرا ز أنت ضياء آماقي
 زكوت ربيع آفاق وفـزـت نعيم عشاق
 أنا المجنون يا ليلي أنا المسقي والساقـي
 أنا كاسي وصهبائي أنا سمي وترياقـي

شرابي مابه صحو" جنوني ماله راقي
جذوري في الثرى غرقى وجذعي سامق راقي
وتلك الشمس ميقاتي وهذي الأرض أوراقي
وأكتب بالشعاع الحلو ألحاني وأذواقني
إذا أفنتني الأيتام شعري خالد باقي

تحياتك يا يافي الى شيراز أرسلها
هنالك بيت أسرا رك للعشاق فصلها
مزاياك التي في القلب ويحك لا تبدلها
« متى ما تلق من تهوى دع الدنيا وأهملها »

★ ★ ★

□ بعض المراجع :

- ١ - معجم البلدان : ياقوت الحموي .
- ٢ - رحلة ابن بطوطة : المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - المكتبة التجارية مصر ١٩٣٨-١٣٥٧ .
- ٣ - مهذب رحلة ابن بطوطة : وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه ، أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك القاهرة ١٩٣٧ .
- ٤ - الموسوعة الإسلامية :
- ٥ - Encyclopedia Universalis .
- ٦ - الموسوعة البريطانية :
- ٧ - تاريخ الأدب الفارسي : ج ١ تأليف إدوارد براون وترجمة د. أحمد كمال الدين حلمي - جامعة الكويت ١٩٨٤ .
- ٨ - حافظ الشيرازي : تأليف إبراهيم أمين الشواربي - مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤ .
- ٩ - الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه : د. محمد محمدي - منشورات قسم اللغة الفارسية وآدابها ١٩٦٧ في الجامعة اللبنانية بيروت .
- ١٠ - من روائع الأدب الفارسي : د. بديع محمد جمعة - طبعة ثانية - دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٣ .